غِوايات المطر

"بين المنزل والمسجد؛ ينقض الوضوء"

توجهت مريم إلى الشارع تتوسل وتتسول. لم يرحمها أحد. حتى وهي تتسول تتعرض للتحرش. فحتى الذين يظهر عليهم سيمياء الوقار والإخلاص يتحرشون بها بعد أن يضعوا درهما أو أقل في يدها. يهمسون لها بثياب حريرية فاخرة، وحمام ساخن، وأموال طائلة، واستمتاع ملائكي في شقق مضاءة بمصابيح بأشهى الألوان.

يا للإنسان! مهما تَقَنّع، ومهما تديّن، ومهما تصنّع العَفاف، إلا أنه حيوان بغريزته. يتلذذ حين يرى الفقراء، والمعدمين. يتلذذ حين يرى الأم على الرصيف تسعى، يَتلذذ حين يأوي إلى بيته وينظر من نافذة مشرعة على السكارى والحمقى والمغفلين، لينتشي بأخبارهم، وقتالهم، وتبادل السباب والشتم في العتمة.

انتقلتْ من الشارع لتتخذ أبواب بيوت الله مأوى وحاميا. كانت ترى أن مَنْ يَمْثُل بين يدي الله، لا يمكنه أن يتلذذ بصوت شابة تردد: "أعينوا هذه المسكينة جزاكم الله خيرا...".

تعتقد أن لذة الرجال تطفئها طقوس العبادة. لكن إيمانها لم يكن صادقا. فقد ذهب أدراج الرياح، وجرته بعيدا نحو الظلام. فما إن يخرج أحدهم من المسجد بسرواله الأبيض، وجلبابه الأبيض الفضفاض، وطاقيته التي تعلو الرأس فتغطّيه، حتى يتقدم تلقاءها. يلقيها بدرهم أو أقل في أحسن

الحالات، وفي الأغلب الأعم يحظى بنظرات لا تخلو من "إيروسية"، أو محادثة لا تخلو من لذة وكبت.

ينزع أغلبهم غطاء الرأس إذ يراها كأنما ينزع لباس التقوى. أما هي، فلم تعد تستغرب لهذا الفعل، فالأشجار هي الأخرى تتقنَّع ثم تُلقي بأور اقها في الخريف. وحده الإنسان لا يستطيع أن يلقي باللذة.

صار كلّ شيء أمامها، من حولها، معها...يؤلمها. حتى أبواب المساجد تُؤلمها؛ فنظرات الناس إليها مؤلمة. ما أصعب أن تلجأ إلى أطهر الأمكنة فترفضك، وتتركك للهباء، والخواء. فلماذا علينا أن نحب الضّوء، ونحب في الضوء؟ ففي البدء كانت العتمة. لكن الذي اخترع المصباح كشف جزءا كبيرا من عورات الناس. كان علينا أن نحب العتمة ونسير فيها مثل القطط وألا تخيفنا.

ما أصعب أن تتكئ على أهل الدّين، فتجدهم مجرد ممثلين داخل مسرحية يفترض أن تكون و اقعية، صادقة...لا مزيفة ومزورة في أحداثها. أن ترفضك المقدسات معناه أن لعنة اللذة لحقتك وإن لم تكن أنتَ سببها وفاعلها. يكفي أن تكون الهدف والمسعى. ومثلما يحصل لأفعى مجروحة حين تنظر إلى النمل يتناوب على جراحها حتى يفصلها نصفين، ويتقاسم أجزاءها، أمام عينيها القنّاصتين، حتى تصير ذكرى، يحصل مع كل من كان هدفا للذة الآخرين. فالنمل نمل وإن سبّح أو سجد. واللذة لذة وإن أحكمتَ عليها بالمفاتيح والسياج والأغلال. اللذةُ لذة،وهذا ما في الأمر.

أخيرا رمقتها امرأة خرجت للتو من المسجد بعد صلاة العصر. كان الجو ماطرا، وكانت الفتاة، بجسدها الغض، تردد عبارتها المعهودة التي حفظها المصلون عن ظهر قلب مثلما حفظوا الآذان. انتظرت المرأةُ التي ستصير، فيما بعد، صديقة تحت "قصدير" إحدى "المجبنات" حتى انقشع المكبوتون. كانوا يطيلون النظر إليها. فهي فرصة للتلذذ بذاك الجسد الغَض الذي بلّلَه المطر. كانت المسكينة ترتجف من شدة البرد، ومن المطر الذي طهّر جسدها، فيما كانوا يلتهمونها بنظراتهم، ويتصورونها عارية، ويعتصرون كل جزء أنثوي بارز فيها.

يا للوقاحة! يا للحقارة! أي درجة بَلغها المسلم؟ وإلى أين يتجه؟ ما بال اللذة تسكن الأمكنة المقدسة؟ ألا تكفيها مصانعها حتى تجيء إلى المقدسات؟!

توجهت الصديقة تلقاءها. كانت دموعها تسيل بغزارة، وكان المطر يمسح عنها الدموع. إنها فرصتها لتبكي بحرقة، ويمسح المطر دموعها دون أن يشعر الناس.

المدينة كهف مظلم مليء باللذة، ودخوله قد يعني الوقوع في الشّرَك. المدينة مصنع للذة، والكبت، ومصب لكل هذا أو يزيد.

نزلت يدُها الساخنة على خديها تمسح عنها ما تبقى من الدمع والمطر. فالمطر يطهر، أحيانا، ما لا تطهره الكلمات؛ لأن الكلمات تجرح المعنى دون أن يقصد أصحابها. أما المطر، فلغته بيِّنة طيِّعة.

لأول مرة أحست بصدق شخص معها، وبالأمان الذي افتقدته داخل الجامعة بأسوارها الباسقة، وداخل حجرات الدرس.

لأول مرة أحست هي باللذة ولم تكن هدفا للذة أحدهم. أخذتها من يدها المرتجفة إلى "المجبنة"، ولعلها، حينما أخذت بيدها، تذكرت أستاذها سنة ٢٠٠٢. تناولتا حساءً ساخنا من الخضروات والدقيق، أخرجت الصديقة من حقيبة يدها منشفة بها رائحة تشبه رائحة زهر اللوز ومدتها لها لتنشف بها جسدها.

أمسكت المنشفة بعد تردد دام بضع دقائق، ولم تنبس أي واحدة منهما ببنت شفة. كان الصمت سيد اللقاء. فالمواعيد الأولى لا يثرثر فيها سوى الكاذبون، والخائفون، والعابرون، وأصحاب حاجاتهم، وذوو العنفوان واللذة الزائدين. الصمت في هذه المواعيد حكمة لا ثمن لها. الصمت في اللقاءات الأولى يُخيف، ويُقنع الآخر بضرورة استمراره في اللعبة حتى يكشف عن المسكوت عنه، وحتى يكشف عن الحقيقة ويسقط القناع، وحتى لا ينعت في خيال الآخر بالخائن أو المتخاذل. العلاقات التي تنتج عن اللقاءات الصامتة أكثر نجاحا من لقاءات الثرثرة والأصوات العالية

لا يزالُ المطر يتلذذ بإحداث ثقوبه على الأرض الطينية، ولا يزال يلح على ثقب المسطح منها. المطر يؤمن أن كثرة السقوط وإغفال الأرض كفيل بشقها، واختراقها، وثقبها.

المطر، أيضا، يمارس غوايته، وغريزته على الأرض ويتلذذ بذلك، والأرض تتلذذ، هي الأخرى، بسقوطه. فهي لا تتوانى، بعد مرور أيام وأسابيع،

أن تعكس له صورة الخصوبة والحمل والولادة؛ فهي تهتز، وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج.

اللذة كامنة، إذن، في كل عناصر الكون، وهي سبب من أسباب الحياة، ولعلها الأساس الذي لا غنى عنه.

إن اللذة إن تحكمت وتمكنت في الإنسان قتلت، فيجب عليه أن يظهرها للآخر، لا أن يُنزلها عليه كالصاعقة. فالسماء قادرة على رمي الأرض وقت، وكيف شاءت، إلا أنها تُنبئها عبر السحاب، والغيوم، والرعد، والبرق، وإخفاء الشمس...وحده الإنسان يُلقي لذاته وأثقاله دفعة واحدة ودون سابق إنذار، ثم يأتي، بعدها، يلقي معاذيره، وتأسفه، وتأففه.

لا تعتذر أيها الإنسان، فلا الأعذار تنفع في غير وقتها، ولا اللذة لذة دون وقتها؛ بالتأثيث لها ولطقوسها. فكل شيء قابل للانفجار، ولكن ليس الكل قادرا على التحكم في الانفجار، والتأثيث له.

رمت الفتاة يدها الباردة بيد صديقتها الساخنة، ومَضَتَا لبيع الجسد. تعلم أنها لم تخلق لذلك. لكنها إرادة الحياة القاسية، وفوضى اللذة والحواس، وسوء ترتيب المكان والأحداث في مكانها الصحيح، وسوء تقدير المسافة، واختيار الأصحاب...جعلها تكون ضمن هذه الأحداث المبعثرة كورقة تذروها رياح اللذة.